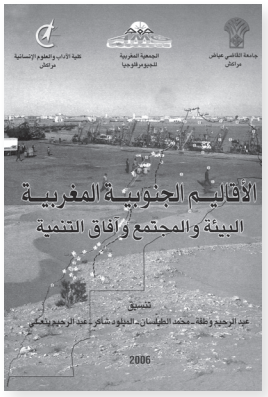

الأقاليم الجنوبية المغربية البيئة والمجتمع وآفاق التنمية

256 ص، 2006

تنسيق: عبد الرحيم وطفة، محمد الطيلسان، الميلود شاكر، عبد الرحيم بنعلي.

نشر بتعاون بين الجمعية المغربية للجيومورفولوجيا وجامعة القاضي عياض مراكش

نظمت الجمعية المغربية للجيومرفلوجيا رحلة علمية إلى الأقاليم المغربية الجنوبية وذلك ما بين 20 و 27 أبريل 2003، شارك فيها مجموعة من الأساتذة والطلبة الباحثين من مختلف الكليات المغربية. كما شاركت مجموعة من الجمعيات المحلية في أجزاء من مسارات الرحلة، نذكر منها ، مجموعة البحث والدراسات حول ساحل الصحراء، الجمعية الصحراوية للبيئة والتنمية بطانطان، جمعية الكصبة بكلميم ومركز الشيخ سيدي احمد الركيبي للدراسات والأبحاث بمدينة السمارة. بهذه المناسبة، وقد أشرفت الجمعية تنظيم وإدارة ثلاث جلسات علمية في كل من طانطان، العيون والسمارة، شارك فيها مجموعة من شيوخ وشباب الصحراء وحضرها ممثلون عن السلطة المحلية وعن القطاعات الإدارية وبعض الفاعلين الاقتصاديين. وخلال الرحلة تبين لأعضاء اللجنة المنظمة وهم عبد الرحيم وطفة، محمد الطيلسان، الميلود شاكر، رشيدة نافع وعبد العزيز فعرس، ضرورة وأهمية إصدار كتاب حول هذا النشاط الذي يجمع بين العمل الببليوغرافي والتقصي الميداني للأوضاع الطبيعية والبشرية بمساعدة عمالة إقليم طانطان ومجلسها البلدي، المجلس البلدي للوطية والمديرية الإقليمية للفلاحة ونيابة التعليم بطانطان. كما ساهمت ولاية العيون-بوجدور والساقية الحمراء، المصالح المختصة بإقليم العيون، معهد الأبحاث البحرية، سلطات المياء، مديرية التجهير، نيابة وزارة الثقافة، السلطات الإدارية والتقنية في مناجم الفوسفاط ببوكراع والإذاعة الجهوية بالعيون، كل حسب اختصاصاته، في إنجاح الرحلة وإغناء الحوار والمعرفة في أجزاء من مسارات الرحلة وفي جلساتها العلمية التي اعتبرت كركيزة أساسية لهذا المؤلف الذي أشرفت على نشره الجمعية المغربية للجيومورفولوجيا بالتعاون مع جامعة القاضي عياض بمراكش في سنة 2006. ويتكون من 256 صفحة، ويحتوي على 14 خريطة، جلها بالألوان، 13 جدولا، 23 شكلا و 47 صورة تعكس خصوصيات المجال في ما يزيد عن عشرين محطة دراسية ميدانية خلال مسار الرحلة.

شملت محتوياته مسار الرحلة، انطلاقا من مقر الجمعية بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط مرورا بأزمور فالوليدية ثم أسفي، الصويرة، محمية المحيط الحيوي لأرگان بسوس، أگادير، أگلو، مير اللفت سيدي افني، گلميم، مصب واد درعة، طانطان، ميناء الوطية، هور خنيفيس، سبخة الطاح، طرفاية، نهر الرمال، فم الواد، مدينة العيون، ميناء العيون، بوكراع، السمارة، الساقية الحمراء، المسيد، طنطان، والرجوع إلى الرباط عبر الخصاص، أگادير، مراكش.

يتكون هذا المؤلف من تسع مقالات رئيسية ومدخل عام ومقدمة عامة، جاءت كلها باللغة العربية باستثناء مقال واحد كتب باللغة الفرنسية. شارك في تأليف هذا الكتاب كل من إدريس الفاسي، عبد الكريم بناني، عبد الرحيم وطفة، محمد الطيلسان، الميلود شاكر، نافع رشيدة، الحسن المحداد، عبد العزيز فعرس، زينب مبسوط وبلحتري هشام، وتم تقسيمه إلى ثلاثة محاور أساسية:

المدخل العام

يستشف القارئ من خلال هذا المدخل أن تثبيت مقدمة الصحراء، كشريط إحيائي نشيط، هو بمثابة درع واق، يضمن المكافحة الناجعة للتصحر ويوفر الوقاية المريحة لكل النطاقات البيومناخية المتواجدة شماله. كما بينت دراسة التركات الرباعية على أن الصحراء هي التي تتضرر بسرعة بأدنى تغيرات مناخية، إذ سرعان ما تحترق السهوب وتحاصر الواحات، أما بلدان الشمال فستستبدل جزءا من برودتها القاسية بمقادير إضافية من الأمطار النافعة. أي أن إتلاف الهوامش يعتبر آفة لا رجعية حيث لا يستطيع الغلاف الإحيائي العودة والتجدد بشكل تلقائي، بل يحتاج للتدخل البشري الموزون. وكتأطير لهذا المؤلف، فصون وإعادة تأهيل الواجهة الجنوبية من بلادنا، تعرض علينا ملفات ثلاثة، مناخية وتشكالية وحضارية. فأقاليم المغرب الجنوبية توجد في عمق العروض الصحراوية وبالتالي تحرمها الرياح الشرقية الدائمة من كل سحب رطبة قادمة من المحيط الاطلنتي. لكن شكل الساحل يجعله يتمتع برطوبة جوية مهمة بدءا من خليج الصويرة إلى نهاية السواحل الجنوبية حيث يصبح خافتا تدريجيا. يبقى ملف العامل البشري أكثر تعقيدا حيث عانى طويلا من غياب وحدة التوجيه والتخطيط بسبب الاختلاف البين للأيادي التي حكمت هذا المجال.

كخلاصة، يبين هذا المدخل ضرورة اعتبار بأن الطبيعة الإحيائية يمكن اعتبارها هبة من السماء في المجالات الرطبة المتميزة بالتساقطات الوافرة والوضع الحراري المناسب، أما في هوامش الصحراء فالإمكانيات المتوفرة هي تراث ونتاج حضاري، يجب التعامل معه بلطف وحذر، مما أدى إلى إنشاء محمية المحيط الحيوي لأرگان، ومحمية الواحات

والتفكير حاليا في حماية الطلح الصحراوي كتراث عالمي وحزام يحد من توسع الصحراء.

المحور الأول: «خصوصيات عامة حول ساحل وصحراء جنوب غرب المغرب»

بعد تقديم لهذا المحور، قدم المؤرخ عثمان بناني «**لمحة تاريخية حول صحراء المغرب بين الماضي والحاضر**»، أوضح فيها الدور الهام الذي لعبه المجال الصحراوي في رسم تاريخ المغرب منذ أقدم العصور وذلك من النواحي الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسياسية. كما يبرز المؤلف تأثير الاكتشافات الجغرافية الكبرى على تطور هذا المجال حيث أصبح المغرب خلال القرن السادس عشر بين كماشتين، برتغالية وإسبانية في الواجهة الغربية والشمالية وعثمانية بشرق البلاد. نتج عن هذا الوضع بلقنة المغرب، خاصة بعد احتلال فرنسا للجزائر الذي زاد من أطماع الاستعمار في التراب المغربي.

ويخلص صاحب المقال إلى أن استقلال المغرب لم يكتمل بعد، حيث لا تزال أجزاء من ترابه بين فكي الاحتلال.وبهذا يكون هذا المقال قد أبرز جذور مشكل الصحراء المغربية والذي لم يقفل بعد.

خصص الموضوع الثاني لـ«**خصوصيات الساحل الصحراوي ضمن الساحل الاطلنتي المغربي من خلال مسار الرحلة الميدانية**». يجد القارئ في هذا المقال وصفا مهما للمشهد الطبيعي وللمظاهر البشرية لمختلف محطات التوقف التي حددها وأعدها المشرفون على الرحلة. فإلى جانب الأساتذة المؤطرين للرحلة، طُلب مسبقا من مجموعة من الكفاءات المحلية المساهمة، كل في مجاله وحسب اختصاصاته، بالالتقاء بقافلة الرحلة وتقديم عرض حول خصوصيات المجال المدروس. وإلى جانب المشاهدة الميدانية لمجموعة من الظواهر والاستفادة من العروض المقدمة بعين المكان وما تلاها من مناقشة، اعتمد مؤلفو المقال على الببليوغرافيا مما سمح بإبراز خصوصيات كل محطة من محطات مسار الرحلة. يتضح للقارئ غنى وتنوع الإطار الطبيعي وما يوفره من موارد مختلفة. كما يبرز المقال مظاهر الهشاشة ومؤشرات الاختلال البيئي ارتباطا بالضغوط البشرية على الخصوص. وقد حاول المؤلفون إبراز هذه الخصوصيات بخرائط وأشكال وصور.

المحور الثاني: «الموارد والإمكانيات الطبيعية للأقاليم الصحراوية بين الوفرة والندرة»، تضمن هذا المحور ثلاث مقالات أساسية ومتكاملة فيما بينها، والتي تبرز طبيعة وأهمية ثروات هذه الأقاليم من سمك وفوسفاط وملح ورمال والموروث الثقافي، وهي:

-**سواحل المغرب الجنوبي بين الإمكانيات الطبيعية ومشاكل التنمية والتهيئة**». يبرز هذا المقال خصوصيات الساحل حيث يمكن استقراء التاريخ البيومناخي من خلال فحص التركات الجيومرفلوجية بهذا المجال. كما نستشف من قراءة هذا العمل

أن الساحل يبقى المحرك الأساسي للتنمية في الأقاليم الصحراوية، حيث تتواجد به أهم المراكز الحضرية وطرق المواصلات والمنشآت الاقتصادية والاجتماعية. وانطلاقا من ظاهرة تركز مختلف هذه الأنشطة على الساحل، ينبه المقال إلى ما يمكن أن ينجم عنه من انعكاسات سلبية على مستوى البيئة، حيث يشتد الترميل والتمركز الاقتصادي.

أما الموضوع الثاني فقد عالج إشكالية «**الماء وتنمية الأوساط الجافة، حالة الجهات الصحراوية المغربية**». إذ على الرغم من توفر مجموعة من الموارد الطبيعية، مثل الفوسفاط والسمك والسياحة، فالمقال يبرز بوضوح قلة الموارد المائية العذبة مما يعرقل مسار التنمية، حيث يتم استنزاف الفرشات الباطنية الموروثة والتي يصعب تجددها في الظروف المناخية الحالية، وبالتالي ضرورة تعميم تجربة تحلية مياه البحر التي انطلقت بالمنطقة.

يعالج المقال الثالث «**القيمة الحقيقية للثروات السمكية بالأقاليم الصحراوية المغربية**. يستعرض هذا المقال مختلف الظروف الطبيعية، خاصة هيدرولوجية الساحل وطول رصيفه المتحكم في تزايد أو تناقص الكميات المتوفرة من السمك. وتوضح الرسوم والخرائط المرفقة حال الثروة السمكية وآفاقها في كل جزء من أجزاء الساحل حسب خاصياته الطبيعية. كما أدت ظاهرة تراجع الكتلة الإحيائية إلى اتخاذ المغرب الإجراءات اللازمة لضمان تجدد المورد، مما دفعه إلى نهج سياسة التفاوض مع الاتحاد الأوربي في هذا الشأن.

خصص المحور الثالث إلى «التدخلات وإشكاليات التهيئة والتنمية» وقد حاول المؤلفون إبراز مؤشرات التدهور في المجال الصحراوي وأظهروا مدى اختلاف انطباعات المشاركين في الرحلة، حيث بدت ظاهرة التدهور للبعض أمرا طبيعيا لا غرابة فيه، ما دمنا في الصحراء، ومن العبث محاولة مكافحة التصحر بالصحراء؟. وعلى خلاف ذلك، حاول البعض الآخر البحث على أدلة ميدانية للإثبات بأن هذه الأوساط على الرغم من هشاشتها الطبيعية، فقد كانت تنعم بالأمس القريب بنوع من الاستقرار الذي وقع إتلافه نتيجة إدخال عادات استهلاكية وأنماط استغلال غريبة، لا تأخذ بعين الاعتبار ندرة الموارد وصعوبة تجددها.

ركز الموضوع الأول على «**مظاهر التصحر وأساليب مكافحته بالأوساط الجنوبية المغربية**. وقد حاول المؤلف أن يبرز بأن التصحر يحدث حتى بداخل الصحراء وبأن الظاهرة قد تشمل حتى أراضي بعيدة عن الصحراء، وبالتالي يجب التأكيد على أن الظاهرة ليست قضاءً وقدراً، بل يمكن التغلب عليها بالسلوك الحضاري الموزون. ويبرز هذا المقال نماذج مختلفة من التصحر بالهوامش الشرقية والجنوبية من المغرب، وبمثلث

أگادير-العيون السمارة. ركز المقال على إبراز اختلاف آليات التصحر من مجال إلى آخر حسب طبيعة الوسط وحسب أنماط استغلاله. هناك مجالات تبدو فيها الظاهرة بوضوح، تتشكل بها الكثبان وفي مجالات أخرى تبقى بها مظاهر التصحر باهتة وخفية، وبالتالي يجب الاعتماد على القياس المباشر لاستنباطها. كما نجد في هذا المقال مختلف أساليب مكافحة زحف الرمال من جهة، ومكافحة التصحر من جهة أخرى.

عالج الموضوع الثاني «**التدخلات البشرية وانعكاساتها المجالية والبيئية بالسواحل الصحراوية، ساحل طانطان نموذجا**». وقد ركز الباحث على ميناء الوطية الذي تم إحداثه في تسعينيات القرن الماضي بهدف خلق قطب اقتصادي تنموي في المجالات الصحراوية، وقد بين الباحث انعكاسات ذلك على التحولات الاقتصادية والاجتماعية في مدينة طنطان وميناءها والمحيط القريب منهما.

وركزت آخر مواضيع هذا المحور على إشكالية الإرمال وانعكاساتها الاقتصادية والاجتماعية وذلك من خلال موضوعين الأول عالج «**إشكالية الإرمال والتنمية بسواحل الساقية الحمراء ووادي الذهب**»؛ والثاني حول «**ممر البرخانات في الجنوب الغربي المغربي**»

وقد بين الباحثان الكثير من النتائج السلبية المرتبطة بتأثير الأرمال على المنشآت الاقتصادية مثل الموانئ والطرق الرئيسية مع تقديم بعض الاقتراحات بشأن معالجة الآثار المترتبة عن ذلك.

ومن المفيد أن نشير إلى أن المقالات الواردة في هذا الكتاب قد تمت إعادة صياغتها على شكل مواضيع لأطروحات أنجزها باحثون من سكان هذه الأقاليم ونوقشت كأطروحات وطنية أشرف عليها الأساتذة الباحثون.

الميلود شاكر
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
الرباط، أگدال